

صورة الغرب في المتخيل العربي الحديث دراسة مقارنة

The image of the west in the modern arab visualization: a comparative study

وفاء سالم*

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم wafa27salem@gmail.com

ياسمين فيدوح

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم yasmina.fidouh@univ-mosta.dz

تاريخ الوصول 2020/10/19 . تاريخ القبول 2021/02/04 . تاريخ النشر 2021/09/27

ملخص:

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على أبرز صور الغرب في المتخيل العربي الحديث على تباين رؤى الأدباء العرب وتوسّع نطاقاتهم المعرفية، ومدى تأثرهم بالفكر الغربي، من خلال الوقوف على ثلّة من أعمال الأدباء أبرزهم توفيق الحكيم، طه حسين، حسين فوزي، أحمد أمين، رفاعة الطهطاوي، وأحمد فارس الشدياق.. وغيرهم. وقد أثبت هذا البحث في الأخير أنّ صورة الغرب في ذهنية الأنا الشرقية لم تأخذ نسقا واحدا، بل جاءت متباينة الأنساق، مختلفة الأشكال، فقد تأرجحت بين ثلاثة تيارات هي: تيار القبول والانبهار المطلق، تيار الرفض والمقاطعة، تيار التعامل بواقعية وفق التفاعل الإيجابي. الكلمات المفتاحية: الغرب، المتخيل العربي، الصورة، مقارنة، تحليل.

Abstract:

The major aim of the present research paper is to shed light on the most important images of the West in the modern Arab visualisation through the investigation of different perceptions held by the Arab writers and the extent to which they have been affected by the Western thought. The paper analyses literary writings by Tawfiq al-Hakim, Taha Hussein, Hussein Fawzi, Ahmed Amin, Rafa'a al-Tahtawi, Ahmed Fares al-Shidiac and so on.

This research has proven in the end that Arabs vision to the West are different; three different streams were revealed; namely, acceptance and absolute fascination stream, refusal stream as well as pragmatic and positive interaction stream.

Keywords: the west, arab visualisation, image, comparative, analysis.

1. مقدمة:

يعد علم الصورة من أبرز حقول الأدب المقارن المستحدثة أهمية وأكثرها حضورا قياسا بمجالاته ونظرياته من الدراسات الأخرى كالتأثير والتأثر، وحقل الموضوعات... وغيرها، ذلك أنّ هذا الاتجاه قد استطاع فعلا أن

يجيب عن كثير من التساؤلات التي تم طرحها حول العلاقة الرابطة بينه وبين دراسة الأدب، وهذا من خلال قدرته على معالجة وفهم الأعمال الأدبية، رادًا بذلك على كل فند عن وجود علاقة بينهما.

وبما أنّ مجال الصورانية يرتكز في الأساس على دراسة الصور المشكلة في ذهنية مجتمع عن آخر. فلم نجد موضوعاً ملهماً أكثر من مقارنة نظرة الأنا الشرقية للآخر الغربي. حيث يبدو أنّ هذه الثنائية -الشرق والغرب- تمثل إحدى أهم المواضيع التي اهتم بها الباحثون وكذلك القراء، ولعل هذا عائد إلى ديناميكية العلاقة وتطورها على رأي أحمد أمين.

وعليه، وحتى تكون هذه الدراسة واضحة المعالم كان لزاماً تحديد إشكالياتها الأساسية. وهي: كيف تتجلى صورة الغرب في المتخيل العربي الحديث؟ وهل يمكن الخروج بصورة واحدة يتشارك فيها جميع الأدباء على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم الأدبية؟ أم أنّ صورهم عن الغرب تختلف وتباين من أديب لآخر ومن ذهنية إلى أخرى وفق مرجعية ما؟

ولإجابة عن هذه الإشكالات المطروحة تمّ تحديد خطة تتدرّج فيها من مقدّمة، ثم مفهوم الصورة الأدبية في الدراسات المقارنة، ثم تباين صور الغرب في المتخيل العربي الحديث. وفي الأخير ختمنا بحثنا باستنتاج موجز أجبنا فيه عن الإشكالات المطروحة. وقد اتبعنا في ذلك المنهج الوصفي المقارن المناسب للدراسات الصورية.

2. مفهوم الصورة الأدبية في الدراسات المقارنة:

اهتمّ كثير من الباحثين في العقود الأخيرة بدراسة علم الصورة / Imagologie، فقد تحقّق بفضل دراسة هذا الاتجاه توطيد العلاقات الإنسانية بين الشعوب، إضافة إلى أنّه مكّن من إشباع «رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التعايش السلمي، إذ إنهم يبحثون عن دور فاعل في الحياة كي يقاوموا لغة العداء التي يعيشها المتعصبون والسياسيون».¹

وأصل هذا المصطلح الأجنبي Imagologie يعود إلى الكلمة اللاتينية "Imago" التي تعني "الصورة" أو "انعكاس النمط"، ممّا يترتّب عنه أنّ دراسة الصورة أو تمثيل الآخر هو ما يصنع هدف وموضوع وقصد الصورية.² فالصورية كما تعرفها نوافل يونس الحمداني هي «العلم الذي يُعنى بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها المنبثقة من تحت وطأة غياب، أو المتسربة من مسكوت عنه وتهتم برصد انطباعات المجتمعات الرابضة في مخيال الوعي الجمعي التي تتم على أنساق معرفية عامة»³، فهي بذلك تصويب وإصلاح مفاهيمي لتصورات ثقافية رسمت في أذهان شعب ما عن آخر، قد تكون هذه التمثيلات والصور نمطية في مجملها.

ويعرفها "دانييل هنري باجو" "Daniel Henri Pageaux" بأنها «التعبير الأدبي أو غيره عن فجوة كبيرة بين نظامي الواقع الثقافي. وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموع الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي، التي تُتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي»⁴، فهي تقتضي تفاعلاً علائقياً بين طرفين مختلفين ثقافياً واجتماعياً، والصورة التي يأخذها الطرف الأول عن الثاني لا تتضح إلّا بوجود هذا التفاعل.

ويرى "عبد المجيد حنون" أنّ الصوريّة «رؤية فردية أو جماعية تتمزج فيها عناصر فكرية وعاطفية في الوقت نفسه، موضوعية وذاتية، فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يحلو لسكانه الأصليين أن يُرى، ومردّد ذلك أنّ العناصر العاطفيّة تغطي على العناصر الموضوعية»⁵. وهذا يدلّ، على حدّ رأي حنون، أنّ تصويرنا للآخر هو نتاج جوانب ذاتية (عاطفية) وأخرى موضوعية، غير أنّ طغيان الجوانب الأولى يبقى هو الغالب، لأنّ الصور الخاطئة يتم تناقلها بسرعة أكبر من الصور الحقيقية، ممّا يجعل من هذا العلم مشوّها في بعض الأحيان للصورة التي نرسمها عن الغير، وقد «تغلب العناصر الموضوعية لتمنحنا صورة مغلوطة عن الآخر، لأن الأجنبي لا يقدم لنا صورة البلد الذي يتناوله مثلما هي عليه، وإنما مثلما يريد أن تكون»⁶، وهذا من منطلق تداخل عدّة خلفيات ذات مرجعيات سيكولوجيّة، سوسيولوجية، وثقافية خاصة.

وفي رأي مختلف يرى "نوافل الحمداي" أنّ مهمة الصوريّة تتمثل في «رسم صورة حقيقية وواقعية للأجنبي (فردا أو شعبا) بعيدة عن التشويه والمغالطة التي يمكن أن يرسمها أدب قومي ما مدفوعا بدوافع عدة»⁷. فالصورة هنا، على النقيض، هي ذلك العلم الذي ينقل لنا صورة حقيقية وواقعية عن الآخر، بحيث لا مجال فيها للتضليل أو التأويل.

ومنه فالصوريّة، بناء على ما سبق ذكره من تعاريف، هي عملية تصوير دقيق أو غير دقيق لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم، وذلك انطلاقا من دراسة قد تكون ممحصّة ناقلة للواقع الفعلي كما هو، وقد تكون مغالطة يشوبها الزيف والتشويه.

وفي سياق آخر يرى الدارسون أنّ الصورة المقارنة متغيرة وليست ثابتة، لأنّها تتغير بتغير الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية المشكّلة لها، وقد أثبتت العلاقات الدولية ذلك، حيث يرى "ألان منتندون" Alain Mantandant أنّ صورة الألماني مثلا بعد سنة 1870م تختلف عن صورته قبل هذا التاريخ، فمن صورة الألماني الحالم، الرقيق، الفيلسوف، المتأمل، والموسيقي الحساس، إلى صورة أخرى مغايرة وهي صورة الألماني الجندي الصلب، والتقني الماهر.⁸

ويرى "مالكوم نيكولسون" أنّ «الصورة ليست جامدة، بل تتبع تطور الأسس الاجتماعية لعلاقة الشعوب ببعضها والتفاعل فيما بينها. فكل صورة تنتج فيها ما يساعد مصالح اجتماعية معينة للمجتمعات السياسية التي استنبطت هذه الصورة من أجلها»⁹، ويرى أنّه من الوارد أن تكون هذه الصور قد تمّ تصميمها خدمة لغايات وأهداف أيديولوجية.¹⁰

والصورة بوصفها نسقا ذهنيا يتشكل في مخيلة الأديب عن شعب أو أمة ما، نجدها تختلف وتباین من شعب لآخر، كما وأنّها قد تختلف عند شعب بعينه من فرد لآخر. ويبدو أنّ هذا الاختلاف سيحيلنا إلى صورة أخرى ألا وهي "الصورة النمطيّة" "Stéréotype"، ذلك أنّ دراسة الصور النمطيّة هي محور الدراسة المقارنة باعتبارها عملية اختزالية في وصف فرد أو جماعة أو شعب، وبالتالي فهي نتاج أفكار مرسّخة، بحيث يكون لها تأثير كبير على صاحبها في تشكيل فكرته تجاه طرف ما، سلبا أو إيجابا، ويكون اعتماده فيها على القوالب

الجاهزة دون إعمال للفكر في التأكد من صحتها أو خطئها، إذ «إن لهذه الصورة، كما يظهر في تاريخ الأفكار والمجتمعات، تأثير كبير على اللاوعي الجمعي ومفعول عميق على الوجدان العام».¹¹

وقد أكدت الأبحاث والدراسات المقارنة على أنّ الصّور التّمثليّة تكون وليدة عناصر اجتماعية، ولكن على الرّغم من ذلك فهي تظهر في قلب الدراسات الأدبية بالخصوص في التّصوص الاجتماعية-السياسية، إذ يشكّل الأدب والفنّ حاليا التّربة الخصبة لتحليلات الصّور التّمثليّة التي طغت في مجتمعاتنا المعاصرة، والتي باتت في كثير من الحالات أساسا لسوء الفهم واللاتسامح بين الشعوب¹²، فقد تبيّن أنّ «الصورة التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء الفهم بين الدول والثقافات سواء كان إيجابيا أو سلبيا، ونعني بسوء الفهم السلبي ذلك النوع الناجم عن الصورة العدائية التي يقدمها أدب قومي عن شعب آخر أو شعوب أخرى»¹³، فالصورة التّمثلية من هذا المنطلق هي تلك التي تكون وليدة نظرة تاريخية نسقية تُورث جيلا عن جيل.

3. تباين صور الغرب في المتخيل العربي الحديث:

شهدت العلاقة بين الشرق والغرب منذ بدايتها مجموعة صدامات ومواجهات فكرية تاريخيا، «...تصورات ورؤى ساهمت في رسمها الشعوب عن بعضها البعض، واتخذت بذلك شكل صور نمطية شائعة، في ذهنيات ومخيلات أفرادها»¹⁴، وكما كان الغربي ينعت الشرقي، المسلم خاصة، ويخصه بصور نمطية ورؤى سطحية كثيرة وغير مبررة وأحكام واهية غالبا ما يروج لها من طرف الإعلام والكتابات الأدبية والأفلام السينمائية... وغيرها، ويصفه «بالبدوي، الثري، المزواج، والعدواني، والغدار الذي لا يؤتمن، وتستساغ هذه الصورة بأريحية دون دراسة ولا نقد»¹⁵، كان الشرقي هو الآخر يخص الغربي بتصورات وأحكام نمطية في غالبها، وإن كانت هذه الصور النمطية «...تبتعد عن الحقيقة والواقع بمقدار معين فإنها صور ساهمت في تشكيلها المخيلة البشرية انطلاقا من وقائع تاريخية وأحداث ومواقف سياسية وأيديولوجية».¹⁶

ولعلّ صورة الغرب في المخيلة الشرقية قد اتخذت أشكالا وتمظهرات كثيرة بين صور سلبية عن غرب مستعمر، أو إيجابية عن آخر متحضّر، أو ما تراوح بينهما، فقد كانت «الصورة الغالبة الأولى هي صورة الغرب الاستعماري، وهي صورة مشوهة وقائمة في ذاكرة العقل العربي، أما الأخرى فهي صورة الغرب الحضاري، يبدو فيها ذا ملامح إيجابية غلب عليها الانبهار بالحضارة الجديدة، وبالوافد الجديد، وربما كانت أحيانا صورة غامضة يحار فيها العقل في مجال تصنيفها إيجابا وسلبا»¹⁷.

وعليه فقد تباينت صورة الغرب في الثقافة العربية واختلفت أشكالها، حيث نجدتها تتأرجح بين تيارات ثلاثة: الانبهار بالغرب وقبوله، أو رفضه ومقاطعته مقاطعة كاملة مع غلق كل سبل التواصل، أو التعامل معه بواقعية وفق التفاعل الإيجابي، وفيما يلي بحث حول هذه التيارات الثلاثة.

1.3 التيار الأول: (الانبهار بالغرب)

لطالما كان الشرق مهد الحضارة والتطور، فقد شكل عبر سنين مضت القوة الضاربة في كل بقاع الأرض حتى سقوط بغداد في المشرق العربي سنة 656 هـ، وزوال دولة الموحدين في المغرب العربي سنة 668 هـ، فمع هذا التاريخ وقبله بقليل ظلّ الشرق يتخبط ويتربّع، لتأفل الحضارة الإسلامية نهائياً بالموازاة مع عصور التنوير في أوروبا بدءاً من القرن السادس عشر، وما ترتّب عنها من ثورات اجتماعية وعلمية وسياسية، أسفرت عن قيام النهضة الأوروبية الحديثة، ثم الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، حينها تخلص الغرب من أغلال الكنيسة وسطوتها على الفكر، وتجرد من سلطة المؤسسة الدينية التي قيده خلال العصور القروسطية، وتحول المجتمع الغربي من مجتمع ديني إلى مجتمع لا ديني تسيّره مبادئ العلمانية وعصر الأنوار.

حينها صار العقل مرتكزاً لبناء الأحكام وتفسير مختلف الظواهر الإنسانية، والمنطق الذي تتأسّس وفقه المعارف والقناعات، فتغيرت الموازين وعادت السلطة إلى الغرب بعد أن كانت في يد الشرق، لتتوالى بعد ذلك كتابات تنمّ عن الانبهار بالغرب والرغبة في الأخذ عنه، وتجلت في إنتاج مجموعة كتاب من أمثال أحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ونقولا الترك وبيرم التونسي، وغيرهم ممن رأوا في الغرب نموذجاً للتمدّن والتحضّر والعقلانية التي ينبغي الاستفادة منها ونقلها إلى الشرق.

رفاعة الطهطاوي، مثلاً، نراه يصوّر في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" رحلته الدراسية التي بُعث فيها «إماماً ومرشداً إلى فرنسا للوقوف على أسباب التقدم الغربي والإفادة من منجزاته الحضارية»¹⁸، وهنا أبدى إعجابه الشديد بالثقافة الفرنسية مضمناً كتابه «تفاصيل دقيقة عن الحياة الفرنسية بشكل خاص، والأوروبية بشكل عام فتحدث عن النظم السياسية من خلال قوالها المعهودة في فهم الدستور الفرنسي، والاطلاع على أركان المجتمع من عادات وتقاليده وفنون، بالإضافة إلى حديث مطول عن المرأة الأوروبية»¹⁹.

وليس الطهطاوي وحده من أعجب ببلاد الغرب، بل هناك كثير من الرخالة العرب وغيرهم ممن تشاطروا الرأي نفسه، على غرار أحمد فارس الشدياق الذي أورد في كتابه "الساق على الساق فيما هو الفارياق" هذه التناقضات بين العالم الشرقي والغربي، وأبدى هو الآخر إعجابه بهذا المجتمع المتقدم كما رآه بعقلية الناقد والمحلل لكل ما يرى²⁰، هذا فضلاً على أننا «نألفه في حديثه عن مألظة أو فرنسا أو إنجلترا يقابل بين الثقافتين الغربية والشرقية، ويضع بين السطور خطته الإصلاحية، ودعوته إلى الحرية، ووجهته في التثقيف، والتنوير، والإرشاد الرامية إلى توعية الرأي العام»²¹ كما يصفه عصمت النصار في تقديمه لكتابه "كشف المخبأ عن فنون أوروبا".

كما عبّر "حسين فوزي" عن رأيه حول هذه العلاقة، مبرزاً إعجابه الشديد بالحضارة الأوروبية في كل جوانبها بعد زيارته للعديد من مدنها مثل: برلين، فينيسيا، بريطانيا، باريس، إذ نجده في كتابه (سندباد إلى الغرب) يقول: «الثورة الفرنسية، وإمبراطورية نابوليون، والجمهورية الثالثة، والرابعة، عظيمة في حبها للعلم والتعليم. لا أعرف في تاريخ العالم ثورة كانت ثورة العلم والمعرفة، ومنشأتها كانت جلها للعلم والتعليم، مثل الثورة الفرنسية، ولم يكن نابوليون في صميمه إلا ابناً لتلك الثورة»²².

وقد صرّح "طه حسين" في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) بوجود الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية، مؤكداً في ذلك على عظمة هذه الحضارة الراقية، ومُلحّاً على «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»²³.

2.3 التيار الثاني: (رفض الغرب وغلق كل سبل التواصل)

ثاني التيارات أو الصور هو تيار الرفض كنعيقض للتيار الأول، حيث شكّل القرن التاسع عشر منعطفًا جديدًا في الوعي الحضاري الغربي، وفي هذه الحقبة برز في المحافل الدولية ما يسمى بـ (المشكلة الشرقية) والتي تعود أصولها إلى الصراع بين الشرق الإسلامي في بقاعه المختلفة وأوروبا الصليبية وفي الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا تنتظر تلاشي الإسلام، من هنا حدث التوسع الأوروبي على حساب الدولة العثمانية الآخذة في الضعف عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا²⁴.

ومّا لا شك فيه أن للعلم الحديث مساهمة في مسح الخريطة العالمية إذ تم إحصاء الدول القوية والمستضعفة (المتخلفة)، فأصبحت إفريقيا وآسيا هدفا لهذا المسح²⁵، وشعرت الدول الأوروبية بالقوة والتفوق مما دفعها إلى البحث عن مناطق جديدة لبسط نفوذها أكثر وتحقيق أهدافها الاستعمارية، وبعد اتّضح هذه الأهداف وسقوط بلدان الشرق تحت وطأة الاستعمار الغربي طفت على السطح نزعات الرفض والانتقاد والكراهية لهذا الغرب، ذلك «أن رغبة الآخر في الهيمنة على قاعدة استراتيجية مبنية على الاحتواء والاحتلال، لم تتوقف عند حدود الحوار السلمي، إنما تعدته إلى الاحتلال، فقد سقط معظم الوطن العربي حتى النصف الأول من القرن العشرين تحت براثن الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإيطالي والإسباني، وبديهي أن يجابه هذا الاحتلال بصورة المقاومة المسلحة في مصر وسوريا والعراق وفلسطين ودول المغرب العربي»²⁶.

ولعل هذا ما جعل ثلة أخرى من الكتاب والمفكرين العرب تنظر إلى الغرب نظرة مخالفة، إذ رأوا فيه نموذجًا للسيطرة والعنف والاستبداد، كأحمد أمين، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي... وغيرهم ممن نقموا على الحضارة الغربية بكل أشكالها.

تبنى توفيق الحكيم موقف رفض الحضارة الغربية من البداية، وكان هذا جلياً بوضوح في روايته "عصفور من الشرق" التي بدا فيها كارهها للغرب ونافيا لكل أحواله، معظماً في الوقت نفسه من قيمة الشرق وتاريخه، حيث يقول في هذا الصدد على لسان "إيفانوفيتش"²⁷: «النور يشرق من بلاد الشمس "ليغرب" في بلاد الغرب»²⁸، فمن خلال هذا القول نستشف مدى انتصار الحكيم لحضارة الشرق على حساب حضارة الغرب.

وعلى خطى توفيق الحكيم سار أحمد أمين، فقد أظهر هو الآخر انتقاده للغرب، ذلك أننا لمسنا في كتاباته رفضه لمحاكاة الحضارة الغربية لما فيها من أغلاط وتناقضات وعدم خلوها من المساوئ، وضمن هذا السياق أفرد "كامل محمد محمد عويضة" كتاباً كاملاً خصصه للحديث عن أحمد أمين وحياته الاجتماعية والفكرية، مبرزاً

فيه هجوم هذا المفكر الدائم على الحضارة الغربية. ويصف أحمد أمين التناقض الكبير الذي اكتسى حضارة الغرب قائلا: «كم في المدينة الحديثة من متناقضات، يؤلمها الرقيق فتسعى جهدها إلى إلغائه، ثم تسترق من الأمم أكثر مما تحرر من الأفراد، تُظهر العطف على الشرق، وتدّعي أن يؤلمها ما تراه متأخرا، ثم تخنق فيه الحرية، وتحجر على التعليم، وتقاوم كل حركة وطنية»²⁹.

ولم يختلف يحيى حقي كثيرا عن توفيق الحكيم وأحمد أمين، حيث أبدى هو الآخر في سيرته الذاتية التي كتبها تحت عنوان (أشجان عضو منتسب) كرهه للغرب ورفضه له، مسلطا الضوء على المجتمع الغربي، كاشفا عن أسرار ازدهاره، مرجعا التقدم الهائل الذي بلغته الحضارة الغربية إلى تاريخها المشوه والمليء بالسطو والنهب والظلم والاستبداد حيث إن «ثراء نسيج المجتمع في الحضارة الغربية ليس سببه تشابك خيوطه فحسب، بل لأن هذا التشابك يجد أسانيده في مقولات الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد، ولكن المجتمع الغربي يشتري هذا الثراء الآن بثمان باهظ، هو تفتت الشعب إلى خلايا مغلقة على ذواتها، لا تدافع إلا عن مصلحتها هي أولا»³⁰.

3.3 التيار الثالث: (اعتدال النظرة وفق التفاعل الإيجابي)

من خلال الإشكاليتين السابقتين خلصنا إلى وجود تيارين متناقضين تمام التناقض بين العرب في نظرهم للحضارة الغربية، إذ ألفينا منهم من كان حادّ الرأي في نظريته هذه أمثال توفيق الحكيم وأحمد أمين ويحيى حقي؛ ممّن تبّنوا فكرة وجوب رفض الغرب برمّته، في حين كان لآخرين رأي مختلف يدعو إلى قبول الحضارة الغربية، معجبا بها ومتفاعلا مع كل جوانبها؛ صالحها وطالحها، كالطهطاوي والشدياق وحسين فوزي وزكي نجيب محمود... غير أنّ كلا التيارين كان محفيا في حق جزء من الحضارة الغربية، فالرفض الكلّي لها يجعلنا منغلقيين على أنفسنا، ممّا يؤدي إلى انزلالنا وابتعادنا عن كل أسباب التقدم والرفق، التي أودعها الله في العالم الغربي.

لكن مع هذا فإنّ الانبهار المبالغ فيه بالحضارة الغربية والركض وراء محاكاتها في كل مظاهرها دون وعي وتبصّر بالفوارق الكثيرة بين الحضارتين يعدّ خطأ كبيرا فيه إجحاف كبير في حق تراثنا العربي الأصيل الحافل بالتاريخ العريق، بالإضافة إلى أنّ هذا الاندفاع وراء التقليد الأعمى للحضارة الغربية ليس كله ظاهرة صحية، لذا رأت مجموعة أخرى من الكتّاب بضرورة الاعتدال في رؤية الغرب وفق التفاعل الإيجابي معه، كما أنّ الدين الإسلامي يدعو إلى العمل بمبدأ الوسطية والاعتدال في الأمور كلّها، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾³¹، وإنما يقصد سبحانه وتعالى بقوله: "أمة وسطا" أمة تتسم بطابع الاعتدال.

وفي هذا السياق نجد زكي نجيب محمود في كتابه "تجديد الفكر العربي" يعدل عن موقفه هو الآخر في نظريته للغرب، إذ كان من أشد المعجبين بالحضارة الغربية ومن أكثر الأدباء انبهارا بها، ويبدو أنه بعد تدقيق وتحصيل قد غيّر رأيه، مبرّرا ذلك بأنه كان من المتعجلين في الحكم قبل فترة طويلة، مشيرا إلى تعصّبه الشديد سابقا للغرب وحضارته.

وبعد فترة المد والجزر التي عاشها زكي نجيب، وبعد أن عاور محاولات الفكرية أمل ويأس، استطاع أن يهتدي إلى جواب بعد عبارة قرأها نقلا عن "هربرت ريد" يقول فيها: «إنني لعلّ علم بأن هناك شيئا اسمه

"التراث"، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة إلى ما استحدثناه من طرائق جديدة...»³²، حينها استطاع زكي نجيب الوصول إلى حلّ وسط مفاده أنه يجب علينا أن «نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً، يضاف إلى الطرائق الجديدة المستحدثة، فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها، كان لا يعني به إلا المؤرخون، بعبارة أخرى: إن الثقافة - ثقافة الأقدمين أو المعاصرين - هي طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحياه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة إلى ثقافة معاصرنا من أبناء أوروبا وأمريكا»³³.

وعليه يرى أنصار هذا التيار ضرورة أن يكون الأخذ من الحضارة الغربية مقروناً بالحذر والرتوية دون اندفاع، ودون إهمال للتراث العربي، عملاً بفكرة عدم الافتتان بالغرب افتتان المجددين الذين لا يهتمون إلا بالحياة المادية وزخرفها أو جماعة التغريب الذين يقصدون الحضارة الغربية تقديساً مبالغاً فيه معتبرينها كل شيء في هذا الوجود، ولا بالانعزال عن العالم المعاصر تسليماً بمبدأ التحفظ الجارف إلى أعماق الجهل والتخلف، لذا يصبح الجمع بين الأصالة (التراث العربي) والمعاصرة (منجزات الحضارة الغربية) حتمياً، فنفي الآخر نفياً تاماً أو محاولة طمس حضارته يقتضي بالضرورة نفي الأنا وطمسها، فالآخر مكمل للذات، وتعدد الذات يوجب تعدد الآخر.³⁴

4. خاتمة:

- ومّا عرضنا له في هذا البحث من عناصر بحثية نخلص إلى مجموعة نتائج نجملها عبر النقاط الآتية:
- تباينت صورة الغرب في المتخيل العربي الحديث واختلّفت أشكالها من أديب إلى آخر، ومن ذهنية إلى أخرى كل حسب مرجعيته وخلفيته الثقافية.
 - رأت مجموعة من الأدباء العرب في الغرب نموذجاً للتمدن والحضارة فانبهروا به وبمعالمه الحضارية، على غرار الطهطاوي والشدياق.
 - ورأت مجموعة أخرى من الأدباء في الغرب نموذجاً للسيطرة والتسلط فعبّرت عن كرهها له ورفضها القاطع لمحاكاة حضارته، أمثال توفيق الحكيم، أحمد أمين، ويحيى حقي.
 - في حين رأت ثلة أخرى من الأدباء ضرورة الاعتدال والتوسط في النظرة وفق التعامل الإيجابي مع الحضارة الغربية دون إهمال للتراث العربي مثل زكي نجيب محمود.

5. الهوامش:

- ¹ ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط1، بيروت - الجزائر ، 2010، ص 09.
- ² ينظر: أسماء يوسف ديتان صالح، الصورولوجيا في الرواية، دراسة مقارنة بين روايات عربية وأمريكية مختارة، أطروحة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، العراق، 2014، ص 02.
- ³ نوافل يونس الحمداني، الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، جامعة المستنصرية، العراق، العدد 25، 2012، ص 644.
- ⁴ دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص 84.
- ⁵ بيير برونيل وآخرون، ما هو الأدب المقارن، تر عبد المجيد حتّون، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، عتّابة 2005، ص 109.
- ⁶ سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي - دراسة مقارنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1986م، ص 178.
- ⁷ نوافل يونس الحمداني، المرجع السابق، ص 08.
- ⁸ زهرة مزوني، دراسة "الصورة" في الأدب المقارن "IMAGOLOGIE"، مجلة الباحث، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، المجلد 8، العدد 16، ص 77.
- ⁹ عفيف عثمان، الغرب بعيون إسلامية: محمد حسين فضل الله رائياً، باحثات، تجمّع الباحثات اللبنانيات، بيروت، الكتاب الخامس، 1998-1999، ص 209.
- ¹⁰ ينظر: عفيف عثمان، المرجع نفسه، ص 206.
- ¹¹ محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيّل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 23.
- ¹² ينظر: زهرة مزوني، المرجع السابق، ص 81.
- ¹³ ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م، ص 239.
- ¹⁴ عالية زروقي، صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى سنة 2010، أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه، قسم الأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة الشلف، الجزائر، 2016-2017، ص 42.
- ¹⁵ غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي: رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجاً، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 24، العدد 3-4، 2008، ص 91.
- ¹⁶ عالية زروقي، المرجع السابق، ص 43.
- ¹⁷ عامر جميل الصرايرة، جدلية العلاقة بين الشرق والغرب في نماذج مختارة من الرواية العربية المعاصرة من عام 2001-2011، أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن، 2013، ص 14.
- ¹⁸ المثني مد الله سليمان العساسفة، اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب: دراسة مقارنة في مختارات من الرواية العربية والهندية، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، د.ط، عمان، 2009، ص 14.
- ¹⁹ رفاعة رافع الطهطاوي، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط، القاهرة، 2012، ص 14.

- ²⁰ ينظر: المثنى مد الله سليمان العساسفة، المرجع السابق، ص 15.
- ²¹ أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوروبا، تقديم: عصمت نصار، دار الكتاب المصري، د.ط، القاهرة، 2012، ص 53.
- ²² حسين فوزي، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، ط3، القاهرة، د.ت، ص 176.
- ²³ طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، د.ت، ص 39.
- ²⁴ سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، بيروت، 1998، ص 18-19.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 19.
- ²⁶ حسن عليان، العرب والغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، عمان-الأردن، 2004، ص 266.
- ²⁷ إيفانوفيتش: أحد أبطال رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم.
- ²⁸ توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، دار مصر للطباعة، ط1، القاهرة، 1988، ص 185.
- ²⁹ كامل محمد محمد عويضة، أحمد أمين المفكر الإسلامي الكبير، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، 1995، ص 144.
- ³⁰ يحيى حقي، أشجان عضو منتسب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، القاهرة، 2000، ص 21-22.
- ³¹ سورة آل عمران، الآية: 64.
- ³² زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط9، القاهرة، 1993، ص 17.
- ³³ المرجع نفسه، ص 18.
- ³⁴ ينظر: بن علي الحاج، مظهرات الآخر في الرواية العربية المغاربية، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2009-2010، ص 06.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص.

المؤلفات:

- أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوروبا، تقديم: عصمت نصار، دار الكتاب المصري، د.ط، القاهرة، 2012.
- بيير برونيل وآخرون، ما هو الأدب المقارن، تر عبد المجيد حنون، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، عناية، 2005.
- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، دار مصر للطباعة، ط1، القاهرة، 1988.
- حسن عليان، العرب والغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، عمان-الأردن، 2004.
- حسين فوزي، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، ط3، القاهرة، د.ت.
- رفاعة رافع الطهطاوي، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، د.ط، القاهرة، 2012.
- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط9، القاهرة، 1993.
- سعيد علوش، إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي - دراسة مقارنة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1986م.
- سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، بيروت، 1998.
- طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، د.ت.

- عفيف عثمان، الغرب بعيون إسلامية: محمد حسين فضل الله رثيا، باحثات، تجمّع الباحثات اللبانيات، بيروت، الكتاب الخامس، 1998-1999.
- كامل محمد محمد عويضة، أحمد أمين المفكر الإسلامي الكبير، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، 1995.
- المثني مد الله سليمان العساسفة، اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب: دراسة مقارنة في مختارات من الرواية العربية والهندية، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، د.ط، عمان، 2009.
- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط1، بيروت - الجزائر، 2010.
- ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، دمشق، 2000م.
- محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيّل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2000.
- يحي حقّي، أشجان عضو منتسب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، القاهرة، 2000.
- المقالات:
- زهرة مزوني، دراسة "الصورة" في الأدب المقارن "IMAGOLOGIE"، مجلة الباحث، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، المجلد 8، العدد 16.
- غسان السيد، صورة الغرب في الأدب العربي: رواية (فياض) لخيري الذهبي نموذجا، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 24، العدد 3-4، 2008.
- نوافل يونس الحمداني، الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، جامعة المستنصرية، العراق، العدد 25، 2012.
- الرسائل الجامعية:
- أسماء يوسف ديان صالح، الصورولوجيا في الرواية، دراسة مقارنة بين روايات عربية وأمريكية مختارة، أطروحة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، العراق، 2014.
- بن علي الحاج، مظهرات الآخر في الرواية العربية المغاربية، أطروحة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2009-2010.
- عالية زروقي، صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 إلى سنة 2010، أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه، قسم الأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة الشلف، الجزائر، 2016-2017.
- عامر جميل الصرايرة، جدلية العلاقة بين الشرق والغرب في نماذج مختارة من الرواية العربية المعاصرة من عام 2001-2011، أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن، 2013.